

الملصق الأول

أبو عمران الفاسي *

العلامة عبد الله كنون

الأمين العام لرابطة علماء المغرب سابقاً

وتش نصوصه واعتنى به:

طارق طاطبي

الباحث بمركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث

* سبق أن نشر هذا البحث مفرداً ضمن سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب بدار الكتاب اللبناني ودار الكتاب المصري، كما نشرته مجلة الثقافة المغربية، عدد 1، عام 1970 م (ص 49-60)، ولعظيم أهميته وكثرة فوائده رأينا إلحاقه بأعمال هذه الندوة.

أبو عمران الفاسي

- ❑ أحد رجال العلم والإصلاح، بيته وأوليته، فاس وطلبه للعلم بها.
- ❑ رحلته ومشائخه، عودته إلى المغرب واستقراره في القيروان.
- ❑ لماذا أزعج عن فاس، شهرته والثناء عليه، متانة دينه، الآخذون عنه.
- ❑ اتصال أمير صنهاجة به، وما نشأ عن ذلك من قيام دولة المرابطين.
- ❑ تأليفه، جوابه عن أسئلة قاضي دانية، دوره في الفتوى، بعض فتاويه
- ❑ حديث من طريقه، رحلة ثانية، إيابه من رحلته ثم موته، وما قاله عند موته.

هذا اسم من أجمع الأسماء في تاريخ المغرب العلمي والسياسي على السواء، فصاحبه من أعلام الفقه والحديث والدراسات الإسلامية العليا، وهو كذلك من رجال الإصلاح والتوجيه والمشاركة في الأحداث العامة، حتى إن له يداً في قيام دولة المرابطين وصبغتها الدينية المعروفة.

❑ بيته وأوليته:

وهو موسى بن عيسى بن أبي حاج، واسمه يَحْجُّ العَفْجُومي نسبة إلى عَفْجُوم بفتح الغين والفاء، فخذ من قبيلة زناتة الشهيرة، ولكنه لا يعرف بهذه النسبة، وإنما يعرف بالفاسي نسبة إلى مدينة فاس التي سكنها سلفه، وكان لهم بها شهرة ونباهة، ولا شك أنه إنما عرف بذلك في القيروان عند استيطانه بها، أما في فاس فإن بيتهم كان يعرف ببني أبي حاج، وإليهم تُسبب درب بُوَحَّاج في حيِّ الطَّالعة من المدينة المذكورة.

قال في كتاب بيوتات فاس المجهول المؤلف: «ومنهم بيت بني أبي حاج... بيت حسب وثروة وفقه وعلم وعدالة، ولهم زُقاق بفاس يقال له: دَرْبُ أبي حاج، منهم الفقيه الإمام موسى بن أبي حاج... المعروف بأبي عمران الفاسي»⁽¹⁾.

(1) بيوتات فاس الكبرى: (44)، والكتاب طبعته دار المنصور للطباعة والوراقة بالرباط 1972 م، وفي عنوانه: شارك في تأليفه إسماعيل ابن الأحمر.

❑ طلبه العلم ببلده:

ولا نعرف عن نشأته شيئاً، إلا أنه ولد سنة (368هـ) فيما نُقل عن ابن عبد البر⁽¹⁾، وقال أبو عمرو الداني سنة (365هـ)⁽²⁾، وهو الموافق لما في المدارك والديباج من أنه مات سنة (430هـ) وهو ابن 65 سنة⁽³⁾.

ولاشك أنه درّس أولاً ببلدة فاس، فقد كانت مركزاً من مراكز العلم والفقه وما تزال قرية العهد بمثل درّاس بن إسماعيل⁽⁴⁾، وأبي جيدة الزناسني⁽⁵⁾، ناهيك بأن ابن أبي زيد القيرواني رحل إليها لزيارة شيخه درّاس... فمدينة تحتوي على علّمين من أعلام الفقه كهذين الشخصيتين الكبيرتين في الوقت الذي ولد فيه أبو عمران وقبله بقليل، لا بد أن تكون وسطاً علمياً مزدهراً، ومثابة للعديد من رجال الفقه والدين.

❑ رحلته ومشيخته:

وبعد أن صلب عوده واشتدّ ساعده، طمحت نفسه إلى الرحلة، والأخذ عن مشايخ العلم ذوي الشهرة الكبيرة في العالم الإسلامي، فرحل إلى القيروان وتفقه فيها

(1) حكاة الجياني عن ابن عبد البر كما في ترتيب المدارك (252/7). طبعة وزارة الأوقاف، بتحقيق سعيد أعراب 1402هـ/1982م.

(2) في المطبوع من ترتيب المدارك: (252/7): (وقال أبو عمرو المقرئ: مات وسنه خمس وستون سنة).

(3) ترتيب المدارك (252/7) وهو من قول أبي عمرو الداني، والديباج المذهب (2/318)، مكتبة الثقافة الدينية، بتحقيق د. علي عمر، 1423هـ/2003م.

(4) أبو ميمونة درّاس بن إسماعيل الفاسي الجراوي (ت357هـ). انظر ترجمته في ترتيب المدارك (6/81-84)، وبغية الملتبس (278)، ومعالم الإيمان (3/109).

(5) أبو جيدة بن أحمد اليزغيتسي أو اليزناسني الفاسي (ت365هـ). انظر ترجمته في سلوة الأنفاس (3/115-118)، والنبوغ المغربي (50-51).

على أبي الحسن القابسي⁽¹⁾، وسمع من أبي بكر الزَّوِيلِي، وعلي بن أحمد اللّواتي السوسي⁽²⁾، ثم رحل إلى قرطبة فقرأ على أبي محمد الأصيلي⁽³⁾، وسمع من أبي عثمان ابن نصر، وعبد الوارث بن سفيان، وأحمد بن قاسم، وغيرهم.

ورحل إلى المشرق فحج حججاً كثيرة، بمعنى أنه أقام فيه سنوات عديدة، ودخل العراق فسمع من أبي الفتح بن أبي الفوارس، وأبي الحسن بن إبراهيم المُسْتَمَلِي، وأبي الحسن بن الحَقْصِر، وأبي أحمد الفرضي، وغيرهم، ودرس الأصول على القاضي أبي بكر الباقلاني⁽⁴⁾، وكان يعجبه حفظه، ويقول له: لو اجتمعت في مدرستي أنت وعبد الوهاب بن نصر، وكان إذ ذاك في الموصل، لاجتمع عندي علم مالك، أنت تحفظه وهو ينظره⁽⁵⁾، أي: يعلّله، وفي رواية «ينصره» بالصاد، أي: يحتج له. والقاضي عبد الوهاب⁽⁶⁾ من أعلام مذهب مالك من البغداديين كما هو معلوم.

-
- (1) أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري (ت 403هـ). انظر ترجمته في ترتيب المدارك (7/ 92-101)، والديباج المذهب (2/ 92-93).
- (2) أبو الحسن علي بن أحمد اللّواتي السوسي. انظر ترجمته في ترتيب المدارك (7/ 102)، ورياض النفوس (2/ 403).
- (3) أبو محمد عبد الله بن إبراهيم الأصيلي (ت 392هـ). انظر ترجمته في ترتيب المدارك (7/ 133-145)، والديباج المذهب (1/ 380-382).
- (4) أبو بكر محمد بن محمد بن الطيب بن محمد القاضي الباقلاني (ت 403هـ). انظر ترجمته في ترتيب المدارك (7/ 44-70)، والديباج المذهب (2/ 211-212).
- (5) انظر ترتيب المدارك (7/ 246).
- (6) أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر المالكي (ت 422هـ). انظر ترجمته في ترتيب المدارك (7/ 220-227)، والديباج المذهب (2/ 25-28)، وتاريخ بغداد (12/ 292).

وكان دخوله إلى بغداد سنة (399هـ)، وقد رجع منها إلى مكة، وكان يسمع بها من أبي ذرّ الهروي⁽¹⁾، وتمكنت المودة بينهما، فوجده بسراة بني شَبَابَة خارج مكة، وأراد أن يحقق بعض روايته عنه، فطلب من خازنه أن يمكنه من كتبه فمنعه، فبحكم دالته على أبي ذرّ غلبت الخازن عليها وأخذها دون رأيه، فقامت على أبي ذرّ من ذلك القيامة، وأغلظ له في الكلام حتى فسد ما بينهما، وبسبب ذلك ترك أبو عمران أن يسميه فيما يرويه عنه، وكان يُكنّيه ويقول: سمعت أبا عيسى⁽²⁾.

ومن سمع منهم بالحجاز أيضاً أبو الحسن بن فراس، وأبو القاسم السَّقْطِي، وبمصر أبو الحسن بن أبي جدار أخذ عنه القراءات، وأحمد بن ثور القاضي، وعبد الوهاب بن منير، وغيرهم.

✧ عودته إلى المغرب واستقراره في القيروان:

وبعد هذه الرحلة العلمية الواسعة عاد إلى القيروان واستوطنها فيما يقول مؤرخوه، وذكر حاتم بن محمد أنه لقيه بالقيروان⁽³⁾ في رحلته إليها سنة (402هـ)، وبذلك يظهر أنه لم يعد إلى بلده فاس بعد رحلته.

ولكننا نجد في كتاب بيوتات فاس الذي تقدمت الإشارة إليه، قوله عنه: «كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وبسبب ذلك أخرجه من فاس الطّغاة من أهلها العاملين عليها لمغراوة، فاستقر بالقيروان إلى أن توفي»⁽⁴⁾.

(1) أبو ذر عبد الله بن أحمد بن محمد الهروي. انظر ترتيب المدارك (7/ 229-233)، والديباج المذهب (2/ 119).

(2) انظر ترتيب المدارك (7/ 244-245).

(3) انظر ترتيب المدارك (7/ 246).

(4) بيوتات فاس الكبرى (44-45).

فهذه العبارة ذات أهمية كبيرة في معرفة السبب الذي هجر من أجله موطنه الأصلي ومسقط رأسه واستوطن القيروان.

وإذا تذكرنا الظروف السياسية وفوضى الحكم التي كان المغرب يخضع لها آنئذ، واضطراب حبل الأمن، وتداول جيران المغرب إلى الاستيلاء عليه، عذرنا مئرجنا في الهجرة منه إلى القيروان واختيارها دار مقام، لاسيما مع التحرش به ومنعه من أداء مهمته، التي هي مهمة كل عالم ديني، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لكن هذا فيما نظن لم يكن قبل رحلته العلمية وتكليه من الرواية ورسوخ قدمه في الفقه، واتجاه أنظار الناس إليه، وسماعهم لقوله، إن دراسته الأولى بفاس لم تكن كافية للتصدر والأمر والنهي، ورحلته أولاً إلى القيروان، ثم إلى قرطبة، وبعد ذلك إلى المشرق قد استغرقت زمناً طويلاً من حياته، خصوصاً، وهو قد أقام بالمشرق عدة سنوات كما مرّ بنا آنفاً وحج حجّات متكررة، فبحكم ذلك يكون قد خرج من بلده في عنفوان شبابه وطراوة إهابه، وهو لا يقصد إلا طلب العلم وزيادة المعرفة، وليست حاله حينئذ مما يجعله آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، ولا مما يدفع بالطغاة من أهل بلده إلى إخراجها منها.

نعم لما عاد من رحلته الطويلة وقد امتلأ وعاءه علماً، وطارت سمعته في الأقطار، وأقبل الناس عليه يأخذون عنه، ويسمعون منه، ويخدمونه، ويُسجّلون قدره، حينئذ ضاق الطغاة به ذرعاً، ولم يقبلوا إنكاره عليهم، فاضطهدوه، وأخرجوه من بلده فاس، فلجأ إلى القيروان التي تعرفه ويعرفها، واستقرّ بها نهائياً إلى أن توفي.

فيكون رجوعه على هذا من رحلته المشرقية إلى فاس، حيث أهله وعشيرته وبيته الذي كان على ما ألعنا إليه من قبل، بيتاً شهيراً ونيهاً، فلما نبّث به فاس، ولقي من مضايقة أهلها وولاتها ما لقي، خرج منها مهاجراً أو مبعداً، فأَمَّ القيروان وتديرها، واستوطنها بقية حياته.

❑ لماذا أزعج عن فاس؟

ولعل مما يُستأنس به لذلك ما رواه ابن فرحون في الديباج أنه أفتى في مسجد بُني بجبل فاس بمثل ما أفتى به في مسجد السَّبْت بالقيروان قبله يحيى بن عمر⁽¹⁾، وكان مسجداً يجتمع فيه أهل الزهد والعبادة، فيقرأون القرآن، ويحكون حكايات الصالحين، وينشدون الأشعار الرقيقة، فقال يحيى: هذه بدعة لم تكن في الزمن الأول، ونهى عن حضوره، واختلف العلماء في ذلك، ولكن أبا الحسن القابسي أيد فتوى ابن عمر، وأبو الحسن هو شيخ مترجماً الذي تفقه عليه في القيروان، فمما لا ريب فيه أنه تأثر به في هذه الفتوى بالنسبة إلى المسجد الذي بني بجبل فاس، ولا يمكن أن يكون ذلك قبل رحلته ولقائه للقابسي وأخذه عنه، فإذا كان هذا صحيحاً فإن فتواه هذه قد تكون مما أخذ عليه بفاس، وجعلت القوم يأتمرون به، وكانت أحد الأسباب في إزعاجه عنها.

إن هذا الموقف مما يدخل في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي قال صاحب كتاب «بيوتات فاس» أنه السبب في إخراج أبي عمران من بلده، وهو يدل على شدة في الدين، واتباع لما كان عليه سلف الأمة وفقهاء الجِلة، من عدم التساهل في مقاومة البدع وإنكار المحدثات؛ فالانفراد عن أهل السنة والجماعة بمسجد خاص يرصد لغير الصلاة وقراءة للعلم، كان هو مبدأ هذه الزوايا والخانقات التي فرقت كلمة المسلمين وجعلت كل حزب بما لديهم متميزين، ولذلك تصدى له هؤلاء الفقهاء الأعلام بالنكير والمعارضة، وكان الحارث بن مسكين وهو من هو فقهاً وعلماً ودينياً قد قضى قبلهم في مسجد من هذا القبيل بناء أحد الأعاجم بصحراء مصر بالهَدم، فعلى هذا السَّن جرى صاحبنا أبو عمران وعلى نهج هؤلاء الأئمة سار، منتصراً للسنة محارباً للبدعة، وإن أدى ذلك إلى تغريبه وإبعاده عن وطنه.

(1) الديباج المذهب: (1/ 296) ذكره في ترجمة أبي عمرو الحارث بن مسكين.

❑ شهرته والثناء عليه:

وعلى أي حال، فإن حياته العلمية إنما توطدت في القيروان بعد استيطانه بها، وشهرته إنما طارت من هذا البلد العظيم الذي خلف فيه أساتذته الكبار، وحصلت له رياسة العلم به، فلم يكن يتقدمه أحد ولا يعول الناس إلا على قوله، ومنه انتشرت فتواه في الأقطار، واستعلنت مكانته الفقهية، فأتمه الطلاب والدارسون من المغرب والأندلس للأخذ عنه، والتفقه عليه، واستجازه من لم يرحل إليه، وأصبح علماً يشار له بالبنان في كل بلاد الإسلام.

وكان يجلس للمذاكرة والسماع في داره، من غدوة إلى الظهر فلا يتكلم بشيء إلا كتب عنه إلى أن مات. قاله عياض⁽¹⁾.

وقال حاتم بن محمد: كان أبو عمران من أحفظ الناس وأعلمهم، جمع حفظ المذهب المالكي إلى حديث النبي ﷺ ومعرفة معانيه، وكان يقرأ القرآن بالسبع ويؤدّه، مع معرفته بالرجال وجرهم وتعديلهم، ولم ألق أحداً أوسع علماً منه، ولا أكثر رواية⁽²⁾.

وقال في المدارك: قال ابن عمّار في رسالته: كان إماماً في كل علم نافذاً في علم الأصول مقطوعاً بفضلته وإمامته.

ولما دخل بغداد شاع أن فقيهاً من أهل المغرب مالكياً قدم، فقال الناس: لسنا نراه إلا عند القاضي أبي بكر الباقلاني، وهو إذ ذاك شيخ المالكية بالعراق، وإمام الناس،

(1) ترتيب المدارك (7/ 245).

(2) انظر ترتيب المدارك (7/ 246).

فنهض من أهل بغداد جماعة لمسجد أبي بكر، ومعه أصحابه وأبو عمران، فجرت مسائل أجاب أبو عمران عنها، ثم سأل رجل شافعي عن مسألة من الاستحقاق، فأجابه أبو عمران بجواب صحيح مجرد عن الدليل، فطلبه السائل بالحجة، فأطرق الشيخ أبو عمران، فقام شاب من أهل بغداد من المالكية، فقال للسائل: أصلحك الله، هذا الشيخ من كبار شيوخنا، ومن الجفاء أن تكلفه المناظرة من أول وهلة، ولكن أخدمه أنا في نصره هذه المسألة، وأنوب عنه فيها، الدليل على صحة ما أجاب به الشيخ حفظه الله كذا وكذا. فاعترضه الشافعي فيه، ثم انفصل المالكي من اعتراضه حتى خلاص الدليل، فلما أكمل الكلام على المسألة قام إليه الشافعي فقبل رأسه، وقال: أحسنت يا سيدي وحبيبي، أنت والله شيخ المذهب حين نصرته، وجرت في ذلك المجلس مسائل غيرها⁽¹⁾.

وهذه الحكاية تدل على أنه لما دخل بغداد، كان يُعَدّ من مشيخة العلم وكبار الفقهاء، وتقدم قول شيخه أبي بكر الباقلاني فيه وفي القاضي عبد الوهاب: لو اجتمعما في مدرستي لاجتمع علم مالك، أنت تحفظه وهو ينظره. ويروى أنه زاد قائلاً: ولو رءاكما مالك لسرّ بكما⁽²⁾.

وإحجام أبي عمران عن مناظرة السائل الشافعي إنما هو لكونه فهم منه أنه أراد تعنيته، كما أشار لذلك الشاب الذي تولى الإجابة عنه، لا لعجز كما لا يخفى.

(1) ترتيب المدارك (7/ 247-248).

(2) انظر ترتيب المدارك (7/ 246).

متانة دينه:

وكان أبو بكر بن عبد الرحمن الخولاني فقيه القيروان وإمام الناس بها قبل قدوم أبي عمران إليها، فلما وردها أبو عمران وجلس بها وبأن علمه، قال كبار أصحاب أبي بكر: نسير إليه، وقالوا: إنه يعز على شيخنا ذلك، وترددوا في الحضور عنده، ثم عزموا على ذلك، وقالوا: إنه لا يحل لنا التخلف عن مثله، فأسخطوا شيخهم حتى يحكى أنه دعا عليهم وهجرهم، ومن ثم فسد ما بين العالمين الجليلين، حتى طمع بذلك صاحب إفريقية وظن أنه يجد به الحجة على العامة؛ إذ كانت طوعهما، فلما اختبرهما لم يجد عندهما ما يوافقه، ووجد دينهما أمتن مما كان يظن⁽¹⁾.

واستمر هذا الخلاف واشتهر بين الناس حتى إن الكاتب أبا العباس أحمد بن رشيق الأندلسي، وكان يميل إلى الفقه ورواية الحديث، كتب إليهما رسالة شهيرة عندهم في الإصلاح بينهما⁽²⁾، ومع أن هذه الخصومة لم يكن له فيها يد كالتي نشبت بينه وبين شيخه أبي ذر، فإنه كان يلزم فيها جانب التعقل ولا يفتح الباب فيها للمستغلين كما رأينا.

الآخذون عنه:

وكان تلامذة أبي عمران الذين تفقهوا به وأخذوا عنه جماعة من الفاسيين، والسبتيين، والأندلسيين، فضلاً عن القيروانيين كأبي القاسم بن مُحَرِّز، وأبي إسحاق التونسي، وأبي القاسم السيوري، وأبي حفص العطار، وابن سعدون، وعبد الحق الصقلي، وعتيق السوسي، وأبي محمد الفحصلي، ومحمد ابن طاهر بن طاوس، وسواهم.

(1) انظر ترتيب المدارك (7 / 239 - 240).

(2) انظر جذوة المقتبس (1 / 195 - 196).

ومن تلاميذه: وَجَّاج بن زُلُو الشهير⁽¹⁾، الذي كان أحد المؤسسين للدولة المرابطية، أخذ عنه بفاس قبل هجرته إلى القيروان، كما في كتاب بيوتات فاس⁽²⁾، والذي في كتاب مفاخر البربر وغيره⁽³⁾، أنه رحل إلى القيروان وقرأ عليه بها.

ويمكن الجمع بينهما: بأنه قرأ عليه أولاً بفاس ولم يُشبع نَهْمَتَه منه، ولما كانت إقامة أبي عمران بفاس بعد رجوعه من رحلة قصيرة، فإن صاحبنا وَجَّاجاً رحل إليه لتجديد العهد به وإكمال دراسته عليه.

❑ اتصال أمير صنهاجة به وما نشأ عن ذلك من قيام دولة المرابطين:

وكان هذا التلميذ قد تشبّع بروح أستاذه الإصلاحية والعلمية، فلما رجع إلى بلده سوس بنى داراً لطلبة العلم، وبها تخرج عليه عبد الله بن ياسين⁽⁴⁾، المؤسس المباشر لدولة المرابطين.

وكان ذلك فيما يروي المؤرخون لما اجتمع يحيى بن إبراهيم الكدالي زعيم صنهاجة وهو عائد من الحج، بمرجعنا أبي عمران الفاسي في القيروان، فسأله أن يبعث معه أحد طلبته لتعليم أبنائه وأبناء قبيلته كتاب الله وقواعد الإسلام، فبعث

(1) واجاج بن زلو اللمطي، من أهل السوس الأقصى، رحل إلى القيروان فأخذ عن أبي عمران الفاسي، ثم عاد إلى السوس، فبنى داراً سماها بدار المرابطين لطلبة العلم وقراءة القرآن، توفي حوالي (445هـ). انظر ترجمته في التشوف إلى رجال التصوف (89-92)، والاستقصا (2/6).

(2) بيوتات فاس الكبرى (28).

(3) انظر مفاخر البربر: (157) نشر دار أبي رقراق، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، ط2/2008م، والتشوف إلى رجال التصوف (89)، منشورات كلية الآداب-الرباط، تحقيق أحمد التوفيق، ط2/1997م.

(4) عبد الله بن ياسين الجزولي (ت450هـ). انظر ترجمته في ترتيب المدارك (81-83)، والبيان المغرب (4/8-16).

أبو عمران معه بكتاب إلى تلميذه وجّاج، يقول فيه: «أما بعد، إذا وصلك حامل كتابي هذا وهو يحيى بن إبراهيم الكدالي، فأبعث معه إلى بلاده من طلبتك من تشق بدينه، وورعه، وكثرة علمه، وسياسته، ليعلمهم القرآن، وشرائع الإسلام، ويفقههم في دينهم، وله ولك في ذلك الثواب والأجر العظيم، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً والسلام»⁽¹⁾.

وقد وقع اختيار وجّاج على تلميذه عبد الله بن ياسين، الذي نعرف من أمره في القيام بدولة المرابطين وحره لأهل الضلال وقضائه على الفتنة والفساد، وصبغه للدولة بصغة الدين التي لم تفارقها حتى انقرضت، ما يضيق المقام عن تفصيله، وإنما المهم أن نشير إلى يد أبي عمران في ذلك، وهي إن لم تكن خطة رسمها للزعيم الصنهاجي عند اجتماعه به في القيروان، فعلى الأقل كانت إرشاداً وتوجيهاً وتأثيراً فيه مباشراً، أو بواسطة تلميذه وجّاج، وتلميذ تلميذه عبد الله بن ياسين، أي: تطبيقاً للدعوة الإصلاحية التي بثّتها مدرسة أبي عمران، ونشرت مبادئها في المغرب وإفريقية، وكان أول ما ظهر منها الثورة على الواقع المؤلم، والوضع الفاسد في فاس من أبي عمران نفسه، مما أدّى به إلى النفي والتشريد.

وهكذا يظهر لنا أبو عمران رجل إصلاح وسياسة وتدبير، إلى كونه رجل علم وفقه وحديث... وقد نجح في كلتا المهمتين، وقرّطس الهدف في كل من الغرضين، وقلما تجد عالماً ذا شهرة وذكر عالٍ إلا وهو ممن أرصد علمه لتغيير ما بقومه وإصلاح أحوالهم، ولم يقتصر على العلم دون العمل.

(1) انظر الخبر كاملاً في الاستقصا للناصري (2/ 5-8).

❏ تأليفه:

ولم يؤلف مترجماً كتباً كثيرة، فكل ما ذكروا له، أنه ألف كتاب «التعاليق على المدونة»، وهو كتاب جليل، إلا أنه لم يكمله، وخرج عوالي حديثه في نحو مائة ورقة، ويوجد في مكتبة الإسكوريال بإسبانيا منسوباً إليه مخطوط يسمى: كتاب الأحكام، وذكر صديقنا الأستاذ عبد السلام ابن سودة في كتابه «دليل مؤرخ المغرب» أن له فهرسة⁽¹⁾، أي: برنامجاً لرواياته ومشيعته، ولعله هو الكتاب الثاني الذي ذكرناه سمي بالفهرسة لمناسبة موضوعه.

وينقل القاضي عياض في المدارك عما يسميه أحياناً التعليق⁽²⁾ لأبي عمران، وأحياناً أخرى يقول وجدت بخط أبي عمران⁽³⁾، وذلك في تراجم بعض الأفراد وتواريخهم، فهل هذا كتاب آخر له، أو إنما هو تقييد مما ظفر به القاضي عياض من آثار أبي عمران.

وفي الحق أن هذه الكتب ولو ثبتت كلها ليست على قدر علم الرجل وتحصيله، واتساع روايته، ومشاركته في العلوم، فإن غيره ممن يعد في تلامذته له عشرات الكتب والمؤلفات، ولكن التأليف موهبة، كما أن الاشتغال بالدرس وهو ما كان أبو عمران منكباً عليه إلى أن مات، يعوق عن الكتابة، ويستنفد مجهود العالم، ومع ذلك فإن علم أبي عمران وفقهه متفرق في الكتب، ومسجل في فتاواه التي تضم كتب النوازل والمسائل الشيء الكثير منها.

(1) دليل مؤرخ المغرب الأقصى لابن سودة (ص 209)، دار الفكر، ط 1. 1418 هـ/ 1997 م.

(2) انظر ترتيب المدارك (6/ 210 و 248).

(3) انظر ترتيب المدارك (6/ 263).

❑ جوابه عن أسئلة قاضي دانية:

ومما يذكر في هذا الصدد، أن أبا عمر بن حسين قاضي دانية، قَدِمَ إلى القيروان برسالة من الموفق صاحب دانية إلى المعزّ صاحب إفريقية، وجرت له بالقيروان أخبار وأمور، فكتب إلى علمائها بمائة سؤال عن فنون العلم أجاب عنها كلها أبو عمران الفاسي⁽¹⁾.

وهذا عمل يدل على قدرته التامة وتصرفه الكامل كما يدل على تصدره وكفايته لعلماء العاصمة الإفريقية الكبيرة.

❑ دوره في الفتوى:

ونحن اليوم لا نستطيع أن نقدر الدور الذي كان يقوم به المفتي في المجتمع الإسلامي الذي يخضع لأحكام الشرع في جميع الشؤون، لبُعْدِنَا عن الحياة الدينية الصحيحة، ولكن يكفي لتصوره في الجملة، أن نتذكر ما كان للناس من تثبيت عظيم بتعاليم الدين، وحرص شديد على عدم مخالفتها في الصغير والكبير من أفعالهم، فهم يلجأون دائماً إلى العلماء يستفتونهم، وإذا اختلفوا فإنهم يعتمدون من ثبت لديهم ورعُه ونزاهته وعدم مجاراته للحكام في أهوائهم، إنه لم يكن هناك إفتاء رسمي ولا خطة حكومية له، فالدولة نفسها تستفتي العلماء وكثيراً ما يعارضون أغراضها ولا يوافقون عليها، وذلك هو الذي يرفع مقامهم عند العامة، ويجعلهم بمثابة الزعماء السياسيين الذين ينتقدون الحكومة في أنظمة الحكم العصرية، ويعارضون سياستها وربما أسقطوها فمن هذا نعرف مهمة المفتي وخطورتها بالنسبة للفرد والجماعة في الوطن الإسلامي، ومنه نعرف مشاغل أبي عمران ومسؤوليته في عاصمة إسلامية

(1) انظر التكملة لكتاب الصلة (1/ 24-25) ترجمة رقم (55).

كالقيروان تموج بالمذاهب والأهواء والاضطرابات السياسية التي خلص منها خلوص الذهب الإبريز، ولم يتأثر موقفه بشيء منها، وإنما بقي ذلك العالم السني النصوص المخلص ملجأ المسلمين فيما يعرض لهم من الشبه والمشاكل وأب الجميع.

❑ بعض فتاويه:

وكان على ما تتبعنا من أقواله وفتاويه يحنح إلى التسامح والرفق وعدم التشديد، إلا مع الولاة والمتسلطين حين يريدون أن يعبثوا بأحكام الشرع، ويصلوا إلى مرادهم من الناس كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

ونسوق هنا فتوى من فتاويه، أنقذت رجلاً من الموت، بتأويل حسن، ونظر متسامح، مع ما كان لعامة الشعب فيه من ثقة كاملة.. وذلك أنه كان في القيروان رجل ادعى أنه خير البرية، فلبّب وهمت به العامة، فحمل إلى شيخنا أبي عمران، فسكن العامة، ثم قال: كيف قلت؟ فقال: إنه خير البرية، فقال له: أنت مؤمن، أو قال مسلم؟ قال: نعم، قال: تصوم وتصلي وتفعل الخير؟ قال: نعم، قال: اذهب بسلام، قال الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾، فأنقبض الناس عنه⁽¹⁾.

ومن تسهيلات في الفتوى أنه كان يقول فيمن حلف بالإيمان اللازمة: تكفيه طلبة واحدة.

ومما يدل على تأنيه وحسن نظره في المسائل وتأنيه لها، أنه جرت بالقيروان مسألة في الكفار هل يعرفون الله أم لا؟ فوقع فيها نزاع عظيم بين العلماء، وتجاوز ذلك إلى

(1) معالم الإيمان (1/ 162).

العامة وكثر التنازع بينهم فيها حتى كاد يقوم بعضهم على بعض في الأسواق، ويخرجون عن حد الاعتدال إلى القتال، وكان القائم بذلك رجلاً مؤدباً يركب حماره ويذهب من واحد إلى آخر، فلا يترك متكلماً ولا فقيهاً إلا سأل فيهما وناظره، فقال قائل: لو ذهبتُم إلى الشيخ أبي عمران لشفاننا من هذه المسألة، فقام أهل السوق بجماعتهم حتى أتوا باب داره واستأذنوا عليه، فأذن لهم، فقالوا له: إنك تعلم أن العامة إذا حدث بها حادث إنما تفرع إلى علمائها، وهذه المسألة قد جرى فيها ما بلغك، وما لنا في الأسواق شغل إلا الكلام فيها.

فقال لهم: إن أنصتُم وأحسنتم الاستماع أخبركم بما عندي، فقالوا له: ما نحب إلا جواباً نبيناً على قدر أفهامنا، فقال لهم: بالله التوفيق، ثم أطرق ساعة، وقال: لا يكلمني إلا واحد ويسمع الباقي، فقصد واحداً منهم، فقال له: أرأيت لو لقيت رجلاً فقلت له أتعرف أبا عمران الفاسي؟ فقال: أعرفه فقلت: صفه لي، فقال: هو رجل يبيع البقل والحنطة والزيت في سوق ابن هشام ويسكن صبرة، أكان يعرفني؟ قال: لا. قلت: فلو لقيت آخر فقلت له أتعرف الشيخ أبا عمران؟ فقال: نعم. فقلت: صفه لي، فقال: هو رجل يدرس العلم ويفتي الناس، ويسكن بقرب السماط، أكان يعرفني؟ قال: نعم. قال: والأول ما كان يعرفني. قال: لا، قال لهم الشيخ: فكذلك الكافر إذا قال لمعبوده صاحبة وولدا وأنه جسم، وقصد بعبادته من هذه صفته، فلم يعرف الله ولم يصفه بصفته، بخلاف المؤمن الذي يقول إن معبوده الله الأحد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، فهذا قد عرف الله ووصفه بصفته، وقصد بعبادته من يستحق الربوبية سبحانه وتعالى.

فقامت الجماعة وقالوا له: جزاك الله خيراً من عالم، فقد شفيت ما بنفوسنا، ودعوا له، ولم يخوضوا في المسألة بعد هذا المجلس⁽¹⁾.

(1) انظر الخبر في ترتيب المدارك (7/ 249-251).

ومما يدل على غيرته وتعظيمه للحرمان وعدم إسلاس قيادته لذوي الأمر، ما حكي أن المعزّ بن باديس بعث إليه ابن عطاء اليهودي طبيبه وخاصته يستفتيه في مسألة، فلما دخل على الشيخ في داره، ظنّه بعض رجال الدولة، إلّا أن نبهه بعض الحاضرين بقوله: أكرمك الله إنه من خيار أهل ملّته، فقال الشيخ: وما ملّته؟ فقال: هذا ابن عطاء اليهودي، فغضب أبو عمران وقال لابن عطاء: أما علمت أن داري كمسجد، فكيف اجترأت على دخولها، وأمره بالخروج، فخرج وهو يرعد، وكان غير مُعلم، فأمر الشيخ بصبغ طرف عمامته لشهرته، وقال: انصرف إلى مرسلك، فقل له: يبعث لي برجل من المسلمين يأخذ جواب مسألته، فإني لأستحيي أن أحملك أسماء الله وحكماً من أحكامه..

فلما دخل اليهودي على المعز ذكر له القضية وقال: والله يا سيدي ما ظننت أن بإفريقية ملكاً غيرك، إلا يومي هذا، ولقد وقفت بين يديك في حال غضبك الشديد فما أدركني فزع، ولا أصابني من الرعب ما أصابني في يومي هذا، فقال له المعزّ: إنما فعلت ذلك لأريك عزّ الإسلام وهيبة علماء المسلمين، وما ألبسهم الله من شعائر الأولياء، لعلك تُسلم⁽¹⁾.

ومهما يكن في هذا الموقف من الشدة، وفي روايته من المبالغة، فإنه من أعظم الأدلة على علو مقام أبي عمران وشدته في دينه وكونه لا تأخذه في الله لومة لائم، ولئن كان المعزّ أخطأ في إرسال اليهودي إلى الشيخ مستفتياً في أمر ديني أو استهتر به، فلقد أحسن الاعتذار بعد ذلك حين قال لرسوله: إنما فعلت ذلك لأريك عزّ الإسلام وهيبة علماء المسلمين.

(1) انظر الخبر في معالم الإيمان (3/ 161).

وأخيراً هذا حديث شريف من طريقه، ولعله أن يكون من عوالي حديثه، نقله ابن بشكوال في الصلة عن خط أبي مروان الطنبني⁽¹⁾، قال: أخبرني الشيخ الجليل أبو حفص محمد بن زاهر، وكتبته من خطه، قال أخبرنا أبو عمران موسى بن عيسى ابن أبي حاج الفاسي الفقيه في داره بالقيروان، قال: أخبرنا أبو الحسن الفقيه ابن القاسي رحمه الله، قال لنا حمزة بن محمد الكِنَاني حين دخلت عليه أنا وأبو موسى عيسى بن سعادة وأبو محمد الأصيلي ووافقناه نازلاً في الدرج، درج مسجد يقال: إنه مسجد ابن لهيعة في حضرموت: من هؤلاء؟ فقيل له: قوم مغلوبة، فوقف فسلمنا عليه، ثم رجع فنظر في وجوهنا وقال: ما أرى إلا خيراً، حَدَّثُونَا عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَثِيرٍ، عَنْ سَفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، عَنْ عَمْرِو بْنِ قَيْسِ الْمُثَلَنِيِّ، عَنْ عطية العوفي، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «احْذَرُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ»⁽²⁾، وتلا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾⁽³⁾.⁽⁴⁾

(1) أبو مروان عبد الملك بن زيادة الله بن أبي مضر السعدي الطنبني التميمي الحماي (ت 457 هـ). انظر ترجمته في جذوة المقتبس للحميدي (2/ 449-450).

(2) الحديث أخرجه بلفظه ابن جرير الطبري في تفسيره (14/ 47) عن ثوبان رضي الله عنه، وللحديث شواهد عديدة بالمعنى أخرجه الترمذي والطبراني والبخاري وابن جرير وأبو نعيم وابن السني، منها حديث: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»، وحديث: «احذروا دعوة المسلم وفساسته فإنه ينظر بنور الله وينظر بتوفيق الله»، وحديث: «اتقوا فراسة العلماء فإنهم ينظرون بنور الله»، وغيرها، انظر اللآلئ المصنوعة (2/ 279)، وكشف الخفاء (1/ 42-43).

(3) سورة الحجر: الآية 75.

(4) انظر الصلة لابن بشكوال (1/ 377) في ترجمة أبي حفص عمر بن عبيد الله بن زاهر.

❑ رحلة ثانية له:

وبقي أبو عمران بالقيروان على حاله من الاشتغال بالعلم والإفتاء والنصيحة والعناية الكاملة إلى أن جد له الشوق إلى الرحلة للمشرق مرة ثانية سنة (426هـ)، فحج ولقي بمكة عبد الله بن أحمد الهروي فأخذ عنه، ثم قدم إلى القيروان، ولم ينسب أن مرض ومات.

❑ وفاته وما قال عند موته:

ولما حضرته الوفاة جعلت زوجته تمرغ خديها على رجليه، فقال لها: مرّغي، والله ما مشيت بهما إلى معصية قط، وهذا من كمال دينه وتقواه لله عز وجل، وحكي أنها قالت: واشمّاة أعداء عيسى بعيسى (تعني به ولد أبي عمران)، فقال لها الشيخ: قولي: لأعداء عيسى لا يموتون⁽¹⁾.

وقيل: إنه توفي عن غير عقب ذكر، وعصّبه بيت المال والعلم لله.

وكانت وفاته في 13 رمضان سنة (430هـ) ودفن ببيته، وقبره معروف بالقيروان إلى اليوم رحمه الله رحمة واسعة.



(1) انظر معالم الإيمان (3/ 163).